

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الخامسة - العدد الثامن عشر - صيف ١٣٩٤ ش / حزيران ٢٠١٥ م

ص ٩٩ - ١٢٠

## مظاهر المقاومة في شعر ابن القيسراني

سيد مهدي مسبوق\*

سارا اسدي (الكاتبة المسؤولة)\*\*

## الملخص

يعتبر أدب المقاومة أدب الوعي والحثّ على تجاوز الأزمات الشعبية والحروب والقهر ويحاول لاستنهاض الهمم للجهاد والوعي بالذات والهوية ويتناول موضوعات البطولة في مواجهة العدوان والظلم والاحتلال. تختلف آليات المقاومة في العصور المختلفة عند الأدباء فمنهم من يتخذ القصة أو الرواية أداة للدعوة إلى المقاومة ومنهم من يتخذ الشعر وسيلة للحثّ على الدفاع. ولما كان الشعر أكثر انتشاراً وتأثيراً في إثارة الهمم نلاحظ أنه قد شغل حيزاً واسعاً في موسوعة أدب المقاومة. كان للغزو الصليبي أثره الواسع في الحياة الاجتماعية ومنه في الشعر حيث بدأ نفر غير قليل من الشعراء يجردون لسانهم للذود عن حمى الإسلام وتحميس الحكام وجندهم لمواجهة العدوان الصليبي. من الشعراء الذين برزوا في بدء هذا الغزو وحملوا سلاح الشعر ضد العدو الصليبي هو ابن القيسراني (٤٧٨-٥٤٨ق) الذي عمل على بعث الحمية في قلوب المسلمين وسلاطينهم خاصة نور الدين الزنكي لاستعادة بلاد المسلمين. ومن أهم مظاهر المقاومة في شعره الدعوة إلى النضال والتحرير على مواصلة الجهاد وتمجيد الأبطال وتصوير ظلم المعتدين. تبدو هذه العناصر في تضاعف قصائده في مختلف الأغراض الشعرية كالمدح والهجو ووصف المعارك. اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي - التحليلي وهدفنا إلى إبراز مظاهر المقاومة وبيان خصائصها لدى ابن القيسراني وذكر المعاني التي اعتمد عليها الشاعر لإذكاء روح الجهاد والمقاومة في صفوف المسلمين وخلصنا إلى أن الشاعر استوحى من الدين والوطن باعتبارهما الباعثين الأساسيين لرفع المعنويات وإثارة النخوة الدينية والغيرة القومية لدى المسلمين واستدعى رموزاً تراثية ليحمس الجنود المسلمين ويحرضهم على الدفاع عن حياض الدولة الإسلامية وحدودها. الكلمات الدليلية: المقاومة، العهد الزنكي، الحروب الصليبية، ابن القيسراني.

\* أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلی سینا، همدان، إيران

smm.basu@yahoo.com

\*\* خريجة ماجستير في اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلی سینا، همدان، إيران

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هادي نظري منظم

تاريخ القبول: ١٣٩٤/٣/٢٠ ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٧/١١ ش

## ١. المقدمة

لما ضعفت الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري بدأت التجزئة والتفكك فيها، فظهرت دول مستقلة أكبرها الدولة السلجوقية، ثم أخذت في الضعف والتدهور نتيجة النزاع بين الأمراء السلاجقة علي العرش. و في ذلك الوقت الذي كان العالم الإسلامي يعاني من التفكك والانقسامات السياسية أغار الصليبيون على بلاد المسلمين حيث لم يجدوا أمامهم أية مقاومة تذكر و مرد ذلك إلى ضعف المقاومة الإسلامية وانعدام قيادة موحدة تلمّ شمل المسلمين وتوحد صفوفهم، فأخذت مدن الشام تسقط واحدة تلو الأخرى حتى اقتصر حكم المسلمين على مدن الشام الداخلية. في أثناء ذلك ظهرت أتابكية الموصل التي أسسها عمادالدين زنكي سنة ٥٢١ق (١١٢٧م) على أنقاض حكم السلاجقة في سوريا؛ حيث دعوا إلى قيام جبهة إسلامية موحدة، من أجل قتال الصليبيين ودحرهم من بلاد الشام. فانطلق كثير من الشعراء يصورون انتصارات المسلمين على الصليبيين ويشيدون بالأمراء و السلاطين للتحريض على مقاومة الغزاة؛ وذلك بسبب الولايات التي تعرضت لها الأمة الإسلامية في هذه الفترة والجرائم الوحشية التي اقترفتها الصليبيون في بلاد المسلمين.

من الشعراء المناضلين في هذا العهد هو ابن القيسراني الذي تتمحور أشعاره على بعث الحمية في نفوس المجاهدين للجهاد واسترداد مقدساتهم والتصدي للعدو الصليبي. عاش ابن القيسراني في فترة هامة من فترات الحروب الصليبية، وصور في أشعاره الأحداث الصليبية خير تصوير ومدح عماد الدين ونور الدين حين انتصرا على الصليبيين وحرّض الأبطال على مواصلة الجهاد لتحقيق هدفهم السامي وهو تحرير البيت المقدس، و لما كان شعر ابن القيسراني يمتاز بالمقاومة والدعوة إلى الجهاد ندرس في هذه المقالة ملامح المقاومة في شعره ونحاول أن نجيب على الأسئلة التالية:

١. ما هو دور الشعر في مواكبة الحروب الصليبية؟

٢. ما هو أهم مظاهر المقاومة في شعر ابن القيسراني؟

٣. ما هي العناصر والمعاني التي اعتمد عليها ابن القيسراني لاستنهاض همم

المسلمين؟

ومن الجدير بالذكر أننا اعتمدنا في استخراج أشعار الشاعر على كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية للمؤرخ أبي شامة المقدسي (ت ٦٥٥ق) إذ قد أورد الكثير من قصائد ابن القيسراني في كتابه وذكر المناسبات الحربية لهذه القصائد.

## ٢. الدراسات السابقة

يمكن إجمال أبرز الدراسات المتعلقة بموضوع الدراسة على النحو التالي:  
أولاً: الدراسات التي تناولت حياة ابن القيسراني وشعره بصورة عامة وهي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة المقدسي، والأدب في بلاد الشام لعمر موسى باشا والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام لأحمد أحمد بدوي والأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار لجودت الركابي وشعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام لمحمد علي الهرفي. إن هذه الكتب قد تحدثت عن حياة ابن القيسراني وأوردت شذرات من أشعاره في مختلف أغراضه الشعرية ومنها أشعاره المقاومة دون أن يستعرض لمواطن الجمال فيها ويلوح إلى عناصر المقاومة التي اعتمدها الشاعر في هذه القصائد.

ثانياً: الدراسات والبحوث التي تناولت شعره بصورة خاصة وانفردت به وهي: رسالة الدكتوراه المعنونة بـ محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره لفاروق أنيس جرّار؛ تناول فيها الباحث مراحل حياة الشاعر وأغراضه الشعرية والصورة الفنية في شعر ابن القيسراني عناصر التشكيل والإبداع لحسام تحسين ياسين سلمان في رسالته لنيل درجة الماجستير بجامعة النجاح الوطنية في نابلس والتي تناول فيها صورته الفنية ومواطن الإبداع فيها، وكتاب صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني لمحمود إبراهيم والكتاب تحدث عن الحروب الصليبية في عصر الزنكيين وأثرها في شعر الشعراء الزنكيين وخص قوله بشعر ابن القيسراني. وهناك مقالة تحت عنوان «الجهاد في شعر ابن القيسراني» لكريم علي عبد علي نشرت في مجلة كلية التربية الأساسية بالجامعة المستنصرية سنة ٢٠٠٩م. وقد عمد هؤلاء الباحثون إلى ذكر أشعاره من دون أن يدرسوا العناصر التي اعتمدها الشاعر لاستنهاض همم المسلمين لمواصلة المقاومة

وحثهم على استرداد مقدّساتهم. أمّا هذه الدراسة فتميّزت بتركيزها على دراسة مظاهر المقاومة في شعر ابن القيسراني من خلال الأشعار التي نظمها الشاعر في الحروب الصليبية التي تأججت نيرانها في العهد الزنكي وتحديثت عن الآليات التي اعتمدها الشاعر لإثارة الغيرة الدينية واستنهاض النخوة القومية لحث المسلمين على المقاومة واستعادة المدن الساقطة.

### ٣. نظرة على حياة ابن القيسراني

هو شرف الدين أبو عبدالله محمد بن نصر بن شاغر بن داغر المشهور بابن القيسراني<sup>١</sup> ولد في عكا بفلسطين سنة ٤٧٨ ق<sup>هـ</sup> ثمّ انتقل إلى القيسارية، فنشأ فيها ونسب إليها ولم يطل بقاؤه فيها وغادر قيسارية بعد استيلاء الصليبيين عليها إلى دمشق وهو في مقتبل العمر وهناك اتّصل بشاعر الشام الذائع الصيت ابن الخياط وتأدّب عليه ولم يمكث فيها لأنه على خلاف مع الأسرة الحاكمة التركيّة من آل طغتكين، وهجا تاج الملوك بوري بن طغتكين هجاء لاذعا فبعث بطلبه فلم يجد بداً من الهرب إلى حلب ليجد الأمان لدى الملوك الزنكيين الذين بسطوا حكمهم على القسم الأعظم من بلاد الشام. (انظر: موسى باشا، ١٩٧٢: ١٥٩-١٦٠) وفي حلب اتّصل بعماد الدين الزنكي زعيم المسلمين في النزاع القائم بينهم وبين الصليبيين. (بيومي، ١٩٥٢: ٣٣) وابنه نور الدين وخذل فتوحاتها وانتصاراتها الباهرة على الصليبيين، واستطاع من خلال قصائده أن يصوّر سياسة نور الدين وخطّته في توحيد القوى الإسلامية تحت لوائه، مشيدا ببطولاته ومحرضاً للجهاد ضدّ العدوّ الغازي، لكن سرعان ما اضطرت الأمور، إذ وقعت جفوة بينه وبين نور الدين لا يعرف سببه بالضبط فتوجّه الشاعر إلى ملوك دمشق من آل طغتكين، ومدح حاكمها مجيرالدين آبق، لكن عرضت له حمى شديدة لم تمهله غير عشرة أيام حتى توفّي سنة ٥٤٨ق. (الهرفي، ١٩٧٩: ١٦٠)

كان ابن القيسراني ذا ثقافة واسعة تظهر ثقافته ومعرفته بالمنطق وكلام الأوائل

١. يبدو أنه هاجر منها مبكراً بعد استيلاء الصليبيين عليها سنة ٤٩٤ق وقد اختلف المؤرخون حول نسبه وأهل بيته. بعض إخوانه يرفعونه إلى الصحابي خالد بن الوليد البطل العظيم، بيد أن الجلّة من المؤرخين يعتقدون أنّ نسله انقطع منذ زمن بعيد.

وأخبار القدماء من خلال المنامة التي يصوّر فيها نفسه، ويحاور فيها أبا تمام وهي تعرف بظلامه الخالدي.<sup>١</sup> (ياسين سلمان، ٢٠١١: ١٨) وكان المدح من أهم أغراضه الشعرية إذ إنّه عاش في فترة هامة من فترات الحروب الصليبية، وشهد بعض المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم؛ لذلك مدح بعض كبار رجال الدولة الذين شاركوا في الجهاد، مشيدا بطولاتهم لإثارة الحميّة في نفوس المجاهدين، وله في الهجاء جولات مع ابن منير الطرابلسي بحيث «كانا يشبهان جريرا والفرزدق للمناقضات والتهاجيات التي جرت بينهما.» (عماد الاصبهاني، لاتا: ٥٥٢/١) وله أوصاف في تضاعيف شعره تشمل «وصف المعارك الحربيّة، ووصف السمات النفسيّة للأبطال، ووصف دمشق.» (أحمد بدوي، ٢٠٠٣م: ١٤٥) أما غزله فريقيق يتحدّث فيه عن الحسنات من الفرنج. (المصدر نفسه: ١٤٥)

#### ٤. الحياة السياسية والاجتماعية في العصر الزنكي

تنسب الدولة الزنكيّة إلى مؤسسها عماد الدين أتابك زنكي بن آق سنقر، وكان قسيم الدولة آق سنقر من أصحاب ملكشاه وأترابه وممن تربّى معه في صغره، واستمرّ في صحبته إلى حين كبره، فلمّا أفضت السلطنة إلى ملكشاه تبنّاه بعد أبيه، وجعله من أعيان أمرائه ولقّبه قسيم الدولة، ثم تولّى مدينة حلب ومنبج واللاذقيّة، فأقطعه الجميع وظهرت كفايته وهيبته في جميع بلاده، ثم ملك بعد موت ملكشاه تكريت، والرحبة وحمص، ثم قتل سنة ٤٨٧ق دفاعاً عن بريكاروق ابن ملكشاه تجاه تاج الدولة تنش أخى ملكشاه الذي تطلب السلطنة. (انظر: المقدسي، ١٩٩٨م: ٦٦-٥٨) ولم يخلف قسيم الدولة غير

١. ظلامه الخالدي، منامة أدبيّة عرض فيها ابن القيسراني لمحاورة بينه وبين أبي تمام؛ حيث يعرض ابن القيسراني نفسه، حاملاً لواء الشعر في زمانه، وأنّه فريد عصره وأوانه، يأتيه أبوتمام في المنام لينصفه ممن ظلمه، ونسب شعره إليه، وتكون المحاورة بأسلوب الشعر والنثر ويظهر ابنالقيسراني وهو يحاور نفسه على لسان أبي تمام، إذ إنه معجب بشعر أبي تمام مقلد له. (ياسين سلمان، ٢٠١١: ١٨)

٢. كلمة أتابك تركية الأصل، وهي مركّبة من لفظين، (أنا) بمعنى مرّبي و(بك) بمعنى أمير، ومعناها معاً مرّبي الأمير أو الأمير الوالد. كان لقباً يطلق على الأمراء والقوادر العسكريين الذين يعهد إليهم تربية أبناء السلاطين السلاجقة، وتعليمهم وتدريبهم على شؤون الحكم وفنون الحرب. (أحمد الشامي، ١٩٩١: ٣٤)

ولد واحد هو زنكى الذى لُقّب فيما بعد بعماد الدين وكان عمره آنذاك عشر سنوات، فاجتمع عليه مماليك الموصل الذين كانوا يلونها من قبل السلاطين السلاجقة إلى أن كبر وصار يحضر معهم الحروب. (تيسير، لاتا: ١١١) ثم ولى الموصل والجزيرة ونصيبين، وما لبث أن وسّع ملكه، وأخذ الجزائر الكثيرة، ومضى ينازل الصليبيين واستولى عليهم و«لم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها سنة ٥٣٩ للهجرة.» (سرجاني، ٢٠٠٩: ٥٠٠) لم تكد تمضى سنتان من هذا المجد البطولى حتى استشهد واقتفى ابنه نور الدين خطى أبيه فى جهاده ضد الصليبيين وأبلى بلاء حسنا فى مواجهة العدو الصليبي، واستولى على دمشق، وكان بعيد النظر يفكر فى تخلص مصر من دولتها المريضة، ولم يلبث أن سنحت له فرصة عظيمة وأصبحت مصر خالصة لصالحالدين و أسس بها الدولة الأيوبيّة ومؤسسها الحقيقى إنّما هو نور الدين، ثم توفّي سنة ٥٦٩ق وخلفه ابنه وكان صبياً وبقي على حلب حتى توفّي سنة ٥٥٧ ق ودخلت فى حوزة صلاح الدين وحكمه. (للتوسع فى الموضوع انظر: ضيف، ١٩٩٠: ٢٨)

اضطراب الحالة السياسية فى هذه الفترة طبع حياتها الاجتماعية بطابع خاص، فكل مدينة كانت تقريبا مستقلة يحكمها ملك أو أمير أو نائب وأدى هذا الأمر إلى ظاهرتين: «الترف فى البناء والملبس والهوايات عند الأمراء الذى لا يقابله ترف مماثل عند طبقات الشعب، وتفاوت العادات والتقاليد ما بين مدينة وأخرى تبعا لوقوعها تحت سيطرة العرب والفرنج.» (أنيس جرار، ١٩٦١: ٢٤)

##### ٥. دور الشعر فى مواكبة الحروب الصليبية

لما اجتاحت العدوان الصليبي البلاد الإسلامية سنة ٤٩٠ق كانت هذه البلاد تعاني من التفكك والفوضى والاقتيال الداخلى وكان تفرّق السلطة واختلاف ذوى السلطان من أقوى الأسباب التى أدت إلى هزيمة المسلمين. واستمر المسلمون على ضعفهم هذا حتى ظهر عماد الدين الزنكى على ساحة الأحداث السياسية وقاد جيش المسلمين ولمّ شملهم واستعاد ما نُهب منهم، وكان للأدب دور فاعل فى المقاومة الشعبية ضد الصليبيين. وهذا الدور لا يقلّ عمّا قام به الجنود لتحرير الأراضى الإسلامية وإثارة النخوة القومية والغيرة

الدينية في نفوس المجاهدين المسلمين، فقد ظهرت جماعة من الشعراء والأدباء قد حملوا على عواتقهم عبء الدعوة إلى الجهاد والأخذ بأسباب القوة للقضاء على العدو المحتل. فمن ثم قد اقتصر معظم أشعارهم على تصوير بطولات المسلمين خاصة الحكام الذين قاموا في وجه النصارى ووصفوا المعارك وتحذّثوا عن الصراعات وساحات القتال والقلاع المحتلة كما وصفوا الأسلحة والمعدّات الحربية، وامتاز شعرهم بصدق العاطفة والشعور رغبة في تطلعاتهم في دحر العدو العاشم واستعادة البلاد الإسلامية وتحريرها.

## ٦. أدب المقاومة

شاع استخدام مصطلح أدب المقاومة خلال العقود الأخيرة، و«هو لا يعنى أن دلالاته جديدة وأن المصطلح نحت من فراغ، بل سبقه مصطلح أدب الحرب، وأدب المعارك، وأدب الجهاد وكلها تتداخل معا للتعبير عن بعض الدلالات المشتركة، وإن بدت مختلفة في بعض جوانبها.» (نجم، لاتا: ٣) أما الجهاد فإنه يحمل طابعا دينيا إذ دعا إليه الإسلام في مواضع مختلفة وألزم المسلمين به وغاياته الدينية هي «هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها واستبدالها بها.» (المودودي، لاتا: ٣٥)

كان مصطلح أدب المعركة وأدب الحرب مقتصرًا على التجربة الحربيّة وحدها وهو في ذاته ما يدعونا للقول بأنّ الموضوعية تجعل أدب المقاومة أكثر رسوخا وتعبيرا عن تلك الحالة الخاصة- العامة التي يعيشها الأفراد والجماعات والشعوب في مواجهة الآخر المعتدى. فهو لا يقتصر على تجربة الحرب وحدها، ولا للتعبير عن القهر والاستبداد فقط. إنّه الأدب المعبر عن العمل من أجل تفجير الطاقات الإيجابية الواجبة للمواجهة. إنّه الأدب المعبر عن وجهة النظر الإنسانية - الشمولية وليست العنصرية الضيقة؛ كما أنّه الأدب الذي يسعى دائماً لتهيئة الأفراد والشعوب والرأى العام والفكرة المقاومة. (المصدر نفسه: ٣٥)

من المناسب أن يطلق على الأدب الذي ظهر في هذه الفترة أدب المقاومة، إذ إنّه لم يقتصر على التجربة الحربية وحدها، إنما هو الأدب الذي «يرسخ لقواعد الوجود

الإنساني الحقّ في مقابل الحياة التي تقوم على الصراع العدواني بدوافع الجشع والهيمنة.» (المصدر نفسه: ٣٥) متطلعا إلى النصر والحرية موقوفا عند المواقف الإنسانية الرائعة والبطولات الحارقة للمقاتلين والحكام المسلمين للحفاظ على قيم ومبادئ الأمم لذاكرة التاريخ.

## ٧. عناصر المقاومة في شعر ابن القيسراني

### ٧-١. الدعوة إلى الجهاد

إن شعر الجهاد والمقاومة كشعر رسالي، أحد أهم أهدافه ضخّ الحسّ المقاوم في شرايين الشعب، وتعميق وتجذير الانتماء المقاوم في ذات الإنسان. (عبدالحليم، ١٩٨٨: ٤٦) ومن الناحية الشرعية يقسم الجهاد إلى نوعين رئيسين: «جهاد الدفع ويقصد به الجهاد من أجل دفع العدو الغازي لبلاد المسلمين، وجهاد الطلب ويقصد به الجهاد من أجل إيصال الدعوة الإسلامية إلى خارج بلاد المسلمين.» (الكبيسي، لاتا: ٢) وإنما هو واجب إسلامي، إذا احتلّ العدو بلاد المسلمين، وبما أنّ بلاد المسلمين تعرضت لغزو العدو الصليبي في العهد الزنكي، اقتصر أكثر شعر الجهاد في هذه الفترة على جهاد الدفع، ولما كان عماد الدين أوّل من قام بالجهاد ضدّ الصليبيين واستطاع من تحرير بلدة الرها من أيدي المحتلين. (سرجاني، ٢٠٠٩: ٤٨٠) سجّل ابن القيسراني هذا النصر الحاسم وأشاد بعماد الدين إشادة مفعمة بالبهجة والسرور في ثلاث قصائد منها هذه القصيدة التي افتتحها بقوله:

كأني بهذا العزم لا فُلَّ حَدُّهُ      وَأَقْصَاهُ بِالْأَقْصَى وَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ  
وَقَدْ أَصْبَحَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ طَاهِرًا      وَلَيْسَ سِوَى جَارِي الدِّمَاءِ لَهُ طُقْرُ

(المقدس، ١٩٨٨: ١٨٧)

فإمارة الرها كانت أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربي الإسلامي. (وهبة، ١٩٩٧: ٣١) وكان استردادها يبرز استرداد الأمة إلى مرجعيتها السياسية كما يبرز الشجاعة وصمود المقاومة الإسلامية بعد نصف قرن من الضعف والضلالة، لذلك يمضي الشاعر بالبهجة والسرور مشيدا ببطولات عماد الدين محرّضا إياه لاستعادة المدن



الساقطة خاصة القدس الشريف وفيها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، مؤكداً على النصر باستعمال اللفظة (أصبح) وتحميس الجند لقتال الفرنج و مواصلة الجهاد.

إن تحرير البيت المقدس يذكي بارقة الأمل في ضمير المسلمين وينفخ روح الغيرة في دمائهم؛ لذلك يخاطب الشاعر نور الدين ويحضه على استعادة البيت المقدس بعد استشهاد عماد الدين واحتلال القدس الشريف:

لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ سِوَى بَيْضٍ بِلا رَمَقٍ      فانهضْ إلى المسجدِ الأقصى بِذِي لَجَبٍ  
وَأذَنْ لِمَوْجِكَ فِي تَطْهِيرِ سَاحِلِهِ      كَمَا التَّوَى بَعْدَ رَأْسِ الْحَيَّةِ الذَّنْبُ<sup>١</sup>  
يُولِيكَ أَقْصَى الْمَنَى فَالْقُدْسُ مُرْتَقِبٌ      فَإِنَّمَا أَنْتَ بَحْرٌ لَجَّهُ لَجَبٌ

(المصدر نفسه: ١٥٤)

إن الشاعر يرسم هزيمة الصليبيين ويشبههم بالحيّة وقد هشم رأسها والتفّ الذنب حولها ليأخذ من هذه الصورة ما ينفخ قوة الدفاع وشدة المقاومة في نفوس المسلمين ويؤكد في ذاته إرادة الذود لتحرير القدس، لذلك يستكثر شاعرنا من الرموز المكانية التي تستوعب مظاهر القداسة فيها مثل القدس والمسجد الأقصى ثم يجرّض ممدوحه في خلال مدائحه مرّة أخرى على تحرير القدس وتطهيرها من دنس الفرنج وإعادة الحياة الكريمة إلى المسلمين.

مع أن أكثر شعر الجهاد قد اقتصر في هذه الفترة على جهاد الدفع، لكنه يجرّض نور الدين على جهاد الطلب إذ رأى في ممدوحه الإرادة الصلبة والعزيمة المؤتلة:

فَسِرْ واستوعِبِ الدُّنْيَا فُتُوْحاً      فلا هَضْبٌ هناك ولا وهادُ<sup>٢</sup>

(المصدر نفسه: ١٤٧)

لم يكن الجهاد ليقصر على حماية الوطن الإسلامي وإنما هو حماية العقيدة الإسلامية، فمن ثم يحثّ الشاعر ممدوحه على توسيع السلطة بعد أن تمكّنت له الانتصارات الحاسمة

١. البيض: السيوف القاطعة، التوى: انقتل وانثنى، الذنب: ذيل الحيوان.

٢. الهضب: مفردها الهضبة وهي الجبل المنبسط الممتد على وجه الأرض، الوهاد: مفردها الوهد وهو الأرض المنخفضة.

ليفتح العالم كله و يوسع رقعة الحكم الإسلامى.

## ٧-٢. الأمل في المستقبل

«لقد كان شعر المقاومة متفائلاً منذ البدء.» (كنفانى، ١٩٦٨: ٨٥) وما من أدب في العالم يماثل الأدب المقاوم إلا إذا اتصل بالأمل والتطلع إلى مستقبل زاهر لتقوية تجليات الصمود والتحدى، ولما كان الشعر وسيلة تعبيرية فيجب على شعراء المقاومة أن يبعثوا في قلوب المسلمين بارقة الأمل، فنرى أن الشاعر يوظف ألفاظاً وتعبيرات تشعل في قلوبهم الرجاء والقوة لاستمرار البطولات للتوصل إلى أهدافهم السامية، ومثال ذلك قوله:

وَالنَّصْرُ دَانٍ وَخَيْلُ اللَّهِ مُقْبِلَةٌ      تَرْجُو الشَّهَادَةَ فِي الْهَيْجَا وَتَغْتَنِمُ

(المصدر نفسه: ١٤١)

نلاحظ في هذه الأبيات رؤية الشاعر الإسلامية، إذ إنه يتحدث عن جيش المسلمين باعتباره جيش الله تعالى، ويصور استقبال المسلم للشهادة التي كان لها أكبر الأثر في ترسيخ فكرة المقاومة، إذ انسابت إلى نفوس المسلمين صلابة العقيدة باستعدادهم للتضحية بالنفس والنفيس واستماتتهم في سبيل الوطن لتحقيق النصر ومجد الأمة الإسلامية. إن عقيدة المؤمنين بالنصر نابعة من إيمانهم بنصرة الله فمن ثم يضحّ الشاعر في أشعاره معاني العقيدة الإسلامية، ويتحدث عن النصر الذي استمده المسلمون من الله تعالى:

وَكَيْفَ يَغِيبُ النَّصْرُ عَنْكُمْ بِوَقْعَةٍ      مَلَائِكَةُ اللَّهِ الْكِرَامُ شُهُودُهَا

(المصدر نفسه: ١٨٩)

يعرف الشاعر أن الرؤية الإسلامية هي الخطوة الأولى التي تضع الحرب على طريق الانتصار، لذلك يشير إلى قوة الدين الحنيف التي ظلت ترفد الأمة الإسلامية وتؤدي بها إلى انتصار خالد ومجد مؤتل ويلوح إلى تحقق النصر في جيش المسلمين على طريقة الاستفهام المفيد للتعجب مؤكداً أن الله تعالى يحميهم ويعمل من وراء مثل هذه الكلمات على رفع معنويات المجاهدين المسلمين.

## ٧-٣. تمجيد الأبطال

إن المدح يعدّ الحجر الأساس في شعر الجهاد وازدهر في هذه الفترة ازدهارا واسعا

واختصّ أكثر شعر الجهاد بمدح الملوك والخلفاء الذين كان لهم الدور الريادي للقضاء على العدو المحتل وحاول الشاعر في أشعاره أن يثير نخوة الحُكّام المسلمين على الجهاد والتصدي للصليبيين، فسجّل في أشعاره أسماء كمال الدين بن الشهرزوى وعماد الدين ونور الدين الزنكي لما صدر منهم من مبادرات قيّمة ضد التوسّع الصليبي فعماد الدين الزنكي له المقام الأول في قيادة الجهاد ضد الصليبيين. (ينظر: بيومي، ١٩٥٢: ٣٣) والذي أعاد الثقة بالنفس إلى المسلمين وأصلّ فيهم الشعور البطولي، وقد عبّر الشاعر في الأبيات التالية عن مشاعره الأبيّة بقوله:

سَلُّوا سِيُوفًا كَأَعْمَادِ السُّيُوفِ بِهَا      صَالُوا فَمَا غَمَدُوا نَصْلًا وَلَا شَهْرُوَا  
حَتَّىٰ إِذَا مَا عَمَادُ الدِّينِ أَرْهَقَهُمْ      فِي مَازِقٍ مِنْ سَنَاهِ يَبْرُقُ الْبَصْرُ  
وَلَوْ تَضَيَّقُ لَهُمْ ذَرْعًا مَسَالِكُهُمْ      وَالْمَوْتُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا وَزْرُ

(المصدر نفسه: ٤٥)

يُصوّر الشاعر في هذه الأبيات شجاعة ممدوحه ويصف ساحة الوغى وعودة الأعداء إلى أعقابهم مقابل جيش المسلمين وسقوطهم في مازق الهلاك لأنهم لا يجدون ملجأً يؤويهم من بطش القائد الإسلامي المغوار عماد الدين الزنكي.

فضلا عن تجلّي معاني الشجاعة والبطولة في أشعاره، تمثلت فيها الجوانب الأخرى من الصفات الأخلاقية منها:

ذو الجهادين من عدوٍ ونفسٍ      فهو طولَ الحياة في هيجاءٍ  
فهو المالك الذي ألزم الناسَ      سُلوكَ المحجّة البيضاءِ  
سرت في الناسِ سيرة الخلفاءِ      قد أخضعت الملوك للعدلِ لما  
قاسماً ما ملكت في الناسِ حتّى      لقسمت التقي على الأتقياءِ

(المصدر نفسه: ٤٥)

إن أدب المقاومة يشيد بالقيّم التي يتطلّع إليها المجتمع البشرى فنرى أن الشاعر قرن بطولة ممدوحه بسائر الشيم الخلقية مثل جهاد النفس، والعدل والتقى و... ليرمز بها إلى السجايا الإنسانية التي تتجلّى في أخلاق المقاتلين المسلمين.

## ٤-٧. تصوير ظلم المعتدين

إن المقاومة جزء من التراث الإنساني العام الذي يعبر عن تأدية الدور الإنساني والحضارى في مواجهة الظلم، وتحاول أن ترفع مكانة القيم الإنسانية للدفاع عن كرامة الإنسان وحدود الوطن. وإن ابن القيسراني كشاعر مجاهد يحاول في مسيرته الشعرية النضالية أن يرسم صورة مؤلمة لوحشية الغزاة المحتلين، ويذكرهم بأفعالهم الشنيعة التي اقترفوها في بلاد المسلمين، أما ترسيم ظلم المعتدين في شعر الشاعر فيختلف عما نعرفه في شعر المقاومة، إذ إن الشاعر عندما يتناول ظلم المعتدين، يتحدث في خلاله عن قدرة المسلمين على تقتيلهم، ليزرع الأمل في قلوب المسلمين لمواصلة الجهاد والمقاومة:

سَرُوا لِيَنْتَهَبُوا الأَعْمَارَ فَانْتَهَبُوا      قَتَلُوا وَيَعْتَمِنُوا الأَمْوَالَ فَاعْتَمِنُوا

(المصدر نفسه: ١٤١)

إن ابن القيسراني صاغ هذه الأبيات عند تحرير حصن بارين ليرسم فيها ما فعله الصليبيون من الفتك بهم واغتنام أموالهم ونهب ثرواتهم وليثير في قلوبهم دوافع الرفض ويمدّم بأواصر الثبات.

قد يقابل الشاعر الصور المؤلمة للمسلمين بصور أخرى ويجرّضهم على الشجاعة والمثابرة ليثير في ضمائرهم الدواعى التي تعطيهم القوة وتحفزهم على ردّ الخصوم:

طالما استنحل الخُطْبُ البهيمُ بهم      حتّى أتى ملكٌ آراؤه غُرُرُ

(المصدر نفسه: ٨٩)

إنّ الشاعر في قصائده الجهادية يتخذ المواقف التي ظلّت ترفد الأمة لمجابهة القوى الصليبية التي تحاول السيطرة والاستحواذ عليهم فمن ثمّ نرى الشاعر يصف احتلال بلاده بالخطب البهيم، ويأتى بلفظة (طالما) ليدلّ بها على الفترة المديدة التي مضت على احتلال بلاده ثمّ يشير إلى الملك نور الدين الذي انتهت به هذه الخطوب ليذكي في قلوب المسلمين بارقة الأمل لمواصلة الجهاد والمقاومة.

## ٥-٧. تهديد الأعداء

إنّ الشاعر يجعل التهديد وسيلة يضاعف بها إرادة خصمه وينزع عنه أسباب المقاومة

ويدخل إلى نفسه الروح والخوف. يتعاضم تهديد الشاعر في أثناء حديثه عن الحروب التي خاضها المسلمون لاستعادة المدن والممالك المحتلة، وكان حصن بارين من أهم بلاد الفرنج التي فتحها المسلمون «بعد المعركة التي انتهت بفوز جيش المسلمين سنة ٥٣٤ ق بقيادة عماد الدين». (العطوى، ١٤١٦: ١٦٥) وبعد تحطيم جيش المشركين وتحضيد شوكة الفرنج أصبح الشاعر ينظر إليهم نظرتة إلى غاصب موقوت الأجل ويلجأ إلى التهديد والوعيد بقوله:

حَذَارِ مِنَّا وَ أُنَى يَنْفَعُ الْحَذَرَ وَ هِيَ الصَّوَارِمُ لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ  
مَنْ حَيْلُهُ النَّصْرُ لَا بَلْ جُنْدُهُ الْقَدَرُ وَ أَيْنَ يَنْجُو مُلُوكُ الشَّرِكِ مِنْ مَلِكٍ

(المصدر نفسه: ٨٨)

إن الشاعر يهدد المشركين ويحذرهم من بأس المسلمين، ويأتي بالاستفهام الذي يفيد معنى النفي ويشبه صوارم المسلمين بنار الجحيم التي ﴿لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ﴾ (مدثر: ٣٢) والتي لا تبقى أثرا منهم ولا تذر، ثم يسمي قادة الصليبيين بملوك الشرك ويلجأ إلى الاستفهام (أين ينجو) قاصدا من خلاله أنه لا ينجو من بأس هذا الملك أحد من النصارى وذلك لأنه ينصره جيش شجاع ثم يرجع عن قوله ويقول لا بل ينصره قضاء الله ومشيئته. وقد يطبع تهديده بطابع النصح ويعبر من خلاله عن شجاعة ممدوحه ويبعث الخوف في قلوب الأعداء:

فَقُلْ لِمُلُوكِ الْخَائِفِينَ نَصِيحَةٌ كَذَا عَنِ طَرِيقِ اللَّيْلِ يَزَارُ غَلْبَهُ  
وَخَلُّوا عَنِ الْآفَاقِ فَالْشَّرْقُ شَرْقُهُ بِحُكْمِ الرُّدَيْنِيَّاتِ وَالْغَرْبُ غَرْبُهُ  
وَلَا يَعْتَصِمُ بِالدَّرْبِ طَاغِ عَلَى الْقَنَا فَإِنَّ الْقَنَا فِي ثُغْرَةِ النَّحْرِ دَرْبُهُ<sup>٢</sup>

(المصدر نفسه: ١٨٩)

نلاحظ أن الشاعر ينصح الصليبيين ويطالبهم بأن يغادروا بلاد المسلمين، لأن الشرق والغرب قد وقعا في حوزة ممدوحه، ثم يهددهم مرة أخرى ويخاطبهم بأن الدروع الرصينة لا تحميهم ولا ينجو أحد منهم من قنا المسلمين.

١. الصوارم مفردة الصارم: السيف القاطع. ومعنى الشطر الثاني: إن هذه السيوف هي التي لا ينجو أحد منها.  
٢. الخافقان: الشرق والغرب، الليث: الأسد، يزأر: يصيح من صدره، الردينيات والقنا: الرماح، ثغرة النحر: ثغرة في أعلى الصدر.

## ٦-٧. هجاء الأعداء

لاشك «أن الاحتلال يولّد المقاومة وأن هذه المقاومة تتناسب تناسباً طردياً في عنفها مع عنف الاحتلال.» (الحمد و البرغوثي، ١٩٩٦: ٥٦) فمن الطبيعي أن يركز الأدب المقاوم على الجوانب التي تحط من شأن الأعداء وبما أن الحروب الصليبية سلسلة من الصراعات العسكرية ذات الطابع الديني فيهدف الشاعر في أشعاره إلى عقائد الأعداء الدينية وينتقص من شأنهم ويرميهم بالكفر والشرك:

وقل للملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها، إن البلاد بلادُهُ

(المصدر نفسه: ٩٨)

إن الشاعر في هذا البيت يحط من شأن الصليبيين الديني ثم يندفع في أثنائه إلى الذود عن بلاده ويقف أمام التحديّات التي يفرضها الصليبيون على المسلمين وبعد وصفهم بالكفر، يحرص على الحفاظ على بلاد المسلمين ويريد من النصاري أن يغادروا بلاد المسلمين ويردّوا عليهم حقهم المهضوم؛ فقد يصف قائدهم بالذئب للحط من شأنه:

أخو اللئيم لولا غدره نزعته به إلى الذئب إن الذئب شيمته الغدر  
أتى رأسه ركضاً وغودر شلوه وليس سوى عافي النور له قبراً

(المصدر نفسه: ١٨٦)

إن الشاعر يهجو الأعداء وينزع عنهم الشجاعة والقوة ليضعف إرادتهم فيشبهه قائد الأعداء بالليث، ثم يعدل عنه ويصفه بالذئب ليظهر فيه صفات الغدر والخيانة التي اتصف بها الذئب، ثم يصف حال الصليبيين بعد هزيمتهم، وكثرة القتلى بينهم حيث أصبحت جثثهم طعام النور الجوارح.

## ٧-٧. إظهار السرور

إن ابن القيسراني يثير في كل جزء من أجزاء قصائده معاني السرور والبهجة. ومن الطبيعي أن ينثر الشاعر في أشعاره بواعث السرور، إذ إن هذه الانتصارات كسرت شوكة الصليبيين وأعادت إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم، لذلك يمضي الشاعر بالبهجة و

١. يقول إن قائد النصاري شجاع ذو بأس كالأسد لكنه اتصف بالغدر والخيانة كالذئب.
٢. الشلو: العضو والقطعة من اللحم، العافي: الرائد. يقول قُطع رأسه وجيء به وتركت أشلاؤه لتقتات به النور.

السرور مخلدًا انتصارات المسلمين بقوله:

الْحَقُّ مُبْتَهَجٌ وَالسَّيْفُ مُبْتَسَمٌ وَمَالُ أَعْدَاءِ مُجِيرِ الدِّينِ مُقْتَسَمٌ

(المصدر نفسه: ١٤١)

إثر انتصار تاج الملك بوري بن طغتكين على الفرنج في عام ٥٢٣ق والقضاء عليهم سجل ابن القيسراني هذا الانتصار معبراً عن ابتهاج الحق وابتسام السيف على طريق التشخيص الذي أراد به المبالغة للإفصاح عن مشاعره الفرحة، ثم يشير إلى انقسام مال الصليبيين بين جيش مجير الدين ليرسم قوة المسلمين في إثارة الحمية ومتابعة النضال، أو يتحدث عن بهجة البلاد ليعبر عن مشاعر الناس وعواطفهم ويوحد صفوفهم ويلقهم تحت راية نور الدين:

وَمَلَكَتْ سِنْجَاراً وَ مَا مِنْ بَلَدَةٍ إِلَّا تَمَنَّى أَنَّهَا سِنْجَارُ  
وَتَنَى الْفَرَاتُ إِلَى يَدَيْكَ عِنَانَهُ وَالْبَحْرُ مَا اتَّصَلَتْ بِهِ الْأَنْهَارُ  
وَمَلَكَتْ رَحْبَةَ مَالِكٍ فَتَبَرَّجَتْ مِنْهَا لَعَيْنُكَ كَاعِبٌ مِعْطَارُ

(المصدر نفسه: ١٧٥)

ينظر ابن القيسراني إلى الوحدة نظرة تعظيم وتبجيل ويحث الحكام عليها. ولا غرو أن يؤكد الشاعر على الوحدة فقد أثبتت الدراسات أن أهم عامل في هزيمة المسلمين في الحروب الصليبية إنما «يرجع إلى عدم وجود قوة موحدة إسلامية تستطيع أن تقف في طريقهم». (بيومي، ١٩٥٢: ٣١) فمن ثم لما استولى نور الدين على سنجار والرحبة والأعمال الفراتية، صور الشاعر ترحيب الديار التي استولى عليها نور الدين. فسنجار مسرورة بهذا، حتى تمت كل مدينة أنها سنجار والفرات.. ليدعو المسلمين إلى الوحدة التي تعد الطريقة الوحيدة للنصر.

## ٧-٨. وصف المعارك

رسم ابن القيسراني مشاهد المعارك مشيدا ببطولات المسلمين وقصد بوصف هذه المعارك أن يصور قدرة المسلمين على القضاء على العدو الصليبي. واعتمد في وصفه على صور تبين قدرة المسلمين على المثابرة والمقاومة وتبرز هذه المعاني بروزا واضحا

١. كاعب: فتاة ناهد الثدي، شبه الشاعر بلدة سنجار بفتاة تزينت لنور الدين ورحبت بقدومه.

في أشعاره الجهادية:

وَالْحَيْلُ مِنْ تَحْتِ قَتْلَاهَا تَحْرُّهَا      قَوَائِمُ خَائِنَتِ الرِّكْضِ وَالْحَبِيبِ  
وَالنَّقْعُ فَوْقَ صِقَالِ الْبَيْضِ مَنَعَدُ      كَمَا اسْتَقَلَّ دُخَانُ تَحْتِهِ لَقْبُ  
لَا الْبَيْضُ ذُو ذِمَّةٍ فِيهَا وَلَا الْيَلْبُ      وَالسَّيْفُ هَامٌ عَلَى هَامٍ بِمَعْرَكَةٍ  
وَالنَّبَلُ كَالْوَبْلِ هَطَالٌ وَلَيْسَ لَهُ      سِوَى الْقِسَى وَأَيْدٍ فَوْقَهَا سَحْبُ<sup>١</sup>

(المصدر نفسه: ١٥٣)

إنَّ الشاعر يجسّد النقع المثار تحت قوائم الخيل وقتل الأعداء في ساحة الوغى ويصوّر المعدّات الحربيّة كالخيول والسيوف والنبال ليكشف بها عن قوّة المسلمين وضعف أعدائهم ويذكى في قلوبهم بارقة الأمل لمواصلة المقاومة:

كَانَتْ سُيُوفُهُمْ أَوْحَى حُتُوفُهُمْ      يَا رَبِّ حَائِنَةٌ مَنَجَاتُهَا الْعَطْبُ<sup>٢</sup>

(المصدر نفسه: ١٥٣)

وفي موضع آخر يحطّ الشاعر من شأن الأعداء ويشير إلى أنهم قد تركوا أولادهم وأهلهم ولم يكثرثوا بصلبانهم التي تعدّ رمزا لدينهم ومن هذا المنطلق يرسم قوّة المسلمين على ردّ جيش الكفار والسيطرة عليهم.

فَعَادَرُوا أَكْثَرَ الْقُرْبَانِ وَانْجَفَلُوا      وَخَلَّفُوا أَكْبَرَ الصُّلْبَانِ وَانْهَزَمُوا  
مُسْتَسْلِمِينَ لِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ      أَغْرَى الْفَنَا بِتِمَادَى خَطْفِهِمْ نَهْمُ<sup>٣</sup>

(المصدر نفسه: ١٤٢-١٤١)

## ٧-٩. الفخر بالقوّة

إنَّ معاني الفخر والاعتزاز بالقوّة تلتمع في أبيات قصائده خاصة في وصفه للمعارك وتتوارد فيه معاني الشجاعة والاعتزاز ويستذكر أيامهم المجيدة التي سجّل المسلمون

١. تخر: تسقط، الحبيب: العدو والركض، النقع: الغبار، هام الأولى في البيت الثالث: من همى يهمى بمعنى سقط و الثانية بمعنى الرأس، اليلب: جلود تلبس على الرؤوس، النبل: السهم، الوبل: المطر الغزير، القسي: جمع القوس.

٢. أوحى حتوفهم: أخبر هلاكهم، الحائنة: النازلة المهلكة ذات الحين. العطب: الهلاك.

٣. انجفل: انزعج و فزع، خطفه: جذبه وأخذه بسرعة، النهم: الرغبة الشديدة. يقول: والموت كان حريصا عليهم.



فيها الانتصارات الدامغة. ويكثر الشاعر من افتتاح قصائده الجهادية بمطالع تمجد القوة وتتغنى بها:

فِي عَسْكَرٍ يُخْفِي كَوَاكِبَ لَيْلِهِ تَقَعُ فَيُطْلِعُهَا الْقَنَا الْخَطَارُ<sup>١</sup>

(المصدر نفسه: ١٧٤)

يرسم الشاعر جيش المسلمين الجرّار وهم يتجهون إلى الأعداء، وتختفى نجوم السماء لكثافة تقع خوافر خيولهم. وقد يلجأ إلى التشبيه ويتحدّث عن كثرة جيش المشركين وقد أحاطوا بالمسلمين من جميع الجهات ليصوّر قدرة المسلمين على هزيمة الكفار:

حَتَّى إِذَا مَا أَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِنَا كَاللَّيْلِ يَلْتَهُمُ الدُّنْيَا لَهُ ظُلْمٌ  
وَأَقْبَلُوا مِنِ الْإِقْبَالِ فِي عَدَدٍ يُوُودُ حَاسِبُهُ الْإِعْيَاءُ وَالسَّامُ<sup>٢</sup>

(المصدر نفسه: ١٤١)

ويتحدّث الشاعر عن الحرب بين عماد الدين وأعدائه وعن كثرة عددهم وعددهم ويذكر تصرفات المسلمين في الظروف المختلفة، وقوتهم وشجاعتهم في الاستيلاء على الأعداء والانتفاض عليهم من كل صوب وحدب:

إِنْ قَاتَلُوا قُتِلُوا، أَوْ حَارَبُوا حُرِبُوا أَوْ طَارَدُوا طُرِدُوا، أَوْ حَاصَرُوا حُصِرُوا

(المصدر نفسه: ٨٨)

ثم يعود ويذكر قادة الأعداء الذين تنوشهم الرماح والسيوف:

وَالْإِبْرَنْزُ فَوْقَ الرُّمْحِ رَأْسٌ تَوَسَّدَ وَالسِّنَانُ لَهُ وَسَادُ<sup>٣</sup>  
تَرَجَّلَ لِلسَّلَامِ فَفَرَّسُوهُ وَلَيْسَ سِوَى الْقَنَاةِ لَهُ جَوَادُ<sup>٤</sup>

(المصدر نفسه: ١٤٦)

إنّ الشاعر يصف هزيمة الأعداء بلغة ساخرة ويقول إن رأس الإبرنز كان بحاجة إلى الوساد فتوسّد الرمح ثم يقدم صورة ساخرة أخرى عن الإبرنز الذي نزل عن ظهر فرسه

١. القنا: الرماح، الخطار: الطعان. يقول: إنهم يقاتلون أعدائهم النصارى بجيش عرمرم جرار تختفى النجوم في غباره المتراكم ويكشف عنها بريق رماحه الطعانة.
٢. يوود: يُجهدُه ويُثقله، الإعياء: الإتعاب والإعجاز.
٣. نوسد: اتكأ ووضع رأسه على وسادة.
٤. ترجل: نزل عن دابته، فرسوه: ركبوه على فرس.

للاستسلام ولكنهم ركّبوه على الأستنة.

#### ٧-١٠. التهكم بالأعداء

السخرية من الأعداء ووصف هزيمتهم وفرارهم من ساحة الوغى مرحلة أخرى لترسيخ فكرة المقاومة في شعر الشاعر وإنه يسخر من الأعداء في كل حرف وكلمة وبخاصة عندما يرسم هزيمتهم أمام جيوش المسلمين:

إلى أينَ يا أسرى المهالكِ بعدما ضاقَ الفضاءُ على نَجاةِ الهاربِ<sup>١</sup>

(المصدر نفسه: ٩٩)

نرى أن الشاعر يتحدث عن هزيمة الصليبيين بلغة ساخرة ويصوّر جنبهم وفرارهم فيوظّف اللفظ في خدمة المعنى ويأتي بلفظ (إلى أين) ليرمز به إلى الخناق الذي فرضه المسلمون على النصارى ويأتي بلفظ (أسرى المهالك) ليرسم من خلاله انهزام جيش الأعداء وسقوطهم قتلى جميعاً.

وفي موضع آخر يسخر الشاعر من الأمير الصليبي برنس الذي قتل في معركة إنّب.

(مقدسى، ١٩٩٨م: ١٥٢) حيث قطع رأسه وحمل على السنان:

عَجِبْتُ للصَّعدةِ السَّمراءِ مُثمرةً برأسه، إنَّ إِمَارَ القَنَا عَجَبُ<sup>٢</sup>

(المصدر نفسه: ١٥٤)

جعل الشاعر رأس عدوّه ثماراً ناضجة، ليعرض صورة عن العدو الصليبي ومصيره المحتوم في القتال مع ممدوحه نورالدين.

#### ٧-١١. استدعاء التراث

هناك دوافع مختلفة تحمل الشاعر على استدعاء التراث، منها الدوافع النفسية، والقومية، والثقافية، و... وربما الدافع الأساس في توظيف التراث في شعر الشاعر هو الدافع القومي حيث بذلك «يهدف الشاعر إلى استثارة طاقات الأمة الموحدة في وجه العدو القومي، الخارجى». (أشقر، ٢٠٠٥م: ٣٦) فالشاعر يوظّف التراث إمّا في

١. أسرى المهالك: من قد وقع في أشراك الهلاكة وأسرّها.

٢. الصعدة السمرء: القناة المستوية.

وصفه للمعارك أو مدح الحكّام أو هجو الأعداء فيستعيد الأجداد والمغازي التي سجّل المسلمون فيها روائع الانتصار مقترنة بالإجلال والإعجاب، مصوراً هزيمة الأعداء:

لله آيةٌ وَقَفَّةٌ بِدْرِيةِ نُصِرَتْ صَحَابُتُهَا بِأَيْمِنِ صَاحِبِ  
ظَفَرٌ كَمالِ الدِّينِ كُنْتُ لِقَاحَهُ كَمِ نَاهِضٍ بِالْحَرْبِ غَيْرِ مُحَارِبِ  
وَأَمَدُكُمْ جَيْشُ الملائِكِ نُصْرَةً كَتائِبِ مَحْثُوثَةٍ بِكَتائِبِ<sup>١</sup>

(المصدر نفسه: ٩٨-٩٩)

يشيد الشاعر بالأيام الإسلامية الماضية ويقرن فتح الرها بمعركة البدر ويذكر أن الله تعالى نصرهم في يوم الرها كما نصر المسلمين في يوم البدر، ويرمى من خلاله إلى ربط الحاضر بالماضي المجيد وإنعاش الذاكرة الإسلامية.

وقد يوظف التراث في رسم صورة العدو الصليبي ويستدعي قصة هلاك ثود ليصور من خلالها هزيمة الفرنجة وما حلّ بهم من دمار وهلاك:

وعارمَ يَوْمًا بِالْعَرِمَةِ فاغْتَدَّتْ كَوادِي ثُودٍ إِذ رَغَا فِيهِ سَقْبُهُ<sup>٢</sup>

(المصدر نفسه: ١٨٨)

فهنا تظهر رؤية الشاعر الدينية حيث يقرن العذاب الذي لحق بالفرنجة على يد نورالدين في معركة عارم، بالعذاب الذي أنزل الله تعالى على قوم ثود لما ظلموا نبيهم صالح(ع) مؤكداً أن الحقّ يلحقه النصر في نهاية الأمر. أو يستوحى قصة قوم عاد والنبي هود(ع) للإشارة إلى هلاك القوم الطالحين:

وَإِنَّمَا الإِفْرانِجُ مِنْ بَغِيهَا عَادٌ وَقَدَ عادَ لَهَا هُودُ

(المصدر نفسه: ١٤٦)

وقد يوظف الرموز الإسلامية و القرآنية في ثنايا مدائحه ويشبهه بمدوحه بالنبي داود والنبي سليمان(ع):

نالَ المعالي حاكِماً مالِكاً فهو سُلَيْمانُ وداوُدُ

(المصدر نفسه: ١٤٥)

١. محثوثة: مملوءة ويقصد من كتائب محثوثة بكتائب جيشا ضخما.

٢. عارم: خاصم. رغا البعير: صوّت وضجّ. سقب: وُلد الناقة.

استوحى الشاعر معظم شخصيات قصائده من التراث الإسلامي والعقيدة الدينية لتحسيس جند المسلمين وحثهم على الجهاد الديني إذ إن «العقيدة الدينية تشدنا إلى الله خالق السماء والأرض، تشدنا دوماً إلى عربتنا وأرضنا المقدسة، من أجل الدفاع عنها أمام الأخطار والغزوات الخارجية.» (أشقر، ٢٠٠٥م: ٣٧) فهنا عقيدة الشاعر الدينية تدعو إلى وحدة الأمة الإسلامية و توحيد صفوفهم للدفاع عن الوطن والعقائد الدينية أمام العدو المحتل.

### ٨. النتيجة

- يعدّ المدح أبرز الأغراض الشعرية الذي صورّ الشاعر من خلاله مقاومة المسلمين وصمودهم تجاه العدو الصليبي الغاشم بقيادة الزنكيين.  
- الدعوة إلى الجهاد، والأمل في المستقبل، ومدح الحكام، وهجو الأعداء، ووصف المعارك من أهمّ مظاهر المقاومة التي تجلّت في شعر الشاعر.  
- يعدّ الدين والوطن الباعثين الأساسيين في رفع المعنويات وإثارة النخوة الدينية والغيرة القومية لدى المسلمين. فمن ثمّ استدعى الشاعر الكثير من الرموز التراثية ليحمّس جنود المسلمين ويحرّضهم على الدفاع عن حياض الدولة الإسلامية وحدودها.  
- اعتمد الشاعر في تصوير بطولات ممدوحيه على الأوصاف الشائعة في الشعر الحماسي من الإظهار بالقوة والفخر والتهكم بهزيمة الأعداء، ليثير النخوة الإسلامية والغيرة القومية في قلوبهم لمواصلة المقاومة والجهاد.

### المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.  
أشقر، أحمد. (٢٠٠٥م). التوراتيات في شعر محمود درويش من المقاومة إلى التسوية. ط ١. دمشق: قدمس للتوزيع و النشر.  
أنيس جزار، فاروق. (١٩٦١م). محمد بن نصر القيسراني حياته و شعره. رسالة الدكتوراه. بيروت: الجامعة الأميركية.  
بيومي، علي. (١٩٥٢م). قيام الدولة الأيوبية في مصر. ط ١. القاهرة: دار الفكر الحديث للطبع والنشر.  
تيسير بن موسى. (لاتا). نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور

- الدين. القاهرة: مكتبة المصطفى.
- الحمد، الجواد وإياد البرغوثي. (١٩٩٩م). دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية حماس. عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط.
- سرجاني، راغب. (٢٠٠٩م). قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي. ط ٢. القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.
- الشامي، أحمد. (١٩٩١م). صلاح الدين والصليبيون. ط ١، القاهرة: مكتبة النهضة العربية.
- ضيف، شوقي. (١٩٩٠م). تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات الشام. ط ٢. القاهرة: دار المعارف.
- عبدالحليم، محمود. (١٩٨٨م). الجهاد في الإسلام. ط ٢. القاهرة: دار المعارف.
- العطوى، مسعود بن عيد. (١٤١٦ق). «الاتجاه المحافظ في الشعر إبّان الحروب الصليبية». مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس عشر.
- الكبيسي، محمد عياش. (لاتا). من فقه المقاومة والجهاد. www.e-prism.org. تاريخ الأخذ: ٢٠١٤/٣/٢٤
- كفاني، غسان. (١٩٦٨م). الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال. ط ١. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- المقدسي، أبوشامة. (١٩٩٨م). الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. الجزء الأول - القسم الأول. القاهرة: دار الكتب المصرية.
- المودودي، أبو الأعلى. (لاتا). الجهاد في سبيل الله. بيروت: دار الفكر الحديث.
- موسى باشا، عمر. (١٩٨٩م). الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دمشق: دار الفكر.
- نجم، سيد. (٢٠١٤). ملامح أدب المقاومة في روايات نجيب محفوظ. www.aljabriabed.com
- وهبة، مصطفى. (١٩٩٧م). موجز تاريخ الحروب الصليبية. ط ١. المنصورة: مكتبة الإيمان.
- الهرفي، محمد علي. (١٩٧٩م). شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام. المملكة العربية السعودية: دار المعالم الثقافية.
- ياسين سلمان، حسام تحسين. (٢٠١١م). الصورة الفنية في شعر ابن القيسراني عناصر التشكيل والإبداع. رسالة الماجستير في جامعة النجاح الوطنية.